

الآخر من نشيد رولان إلى فولتير

(٥) الأستاذ الطيب بن رجب

إن الشعوب لكالأفراد تصاب بما يصاب به هؤلاء. فتصاب بأمراض هي نفسها التي تصيب الكيانات الفردية. وهي إذا ما أخذت في النهوض وكانت معافاة نزعت إلى الانفتاح. أمّا إذا بلغت أوج ذلكم النهوض آلت في غير ما حاجة إلى غيرها. فيكون قد بلغ بها أمر نرجسيّتها حدّا لم تعد معه قادرة على ذلك الانفتاح الأوّل. فهي لا ترى غير نفسها. وإنّما هذا حال الشعوب المتحضرة عامّة. أمّا باقي الشعوب فقد ظلّت على حالها من الانغلاق على نفسها لأنّ الأساس المادي للنهوض لم يتوفر لها بحكم الصعوبات الموضوعية الطبيعية خاصّة، تلك الصعوبات التي كبّلتها فظلّت على حالها البدائي إلى حدّ العصور الحديثة. فانظر في الحضارة العربية الإسلامية على سبيل المثال تر حالاً من الانفتاح في أوّل أمرها وقد مثله الجاحظ وحالاً من الانغلاق مثلته المؤسسة الدينية منذ القرن الرابع للهجرة. بل لقد استفحل بها أمر نرجسيّتها. فانتقلت من انحطاط إلى انحطاط حتّى اصطدمت بواقع جديد آلت فيه موضع احتلال من قبل تلك الشعوب التي كانت تتعامل معها على أنّها دونها بالضرورة في كلّ شيء. وإنّ الشعوب لتمرّ من حال إلى حال ومن دور إلى دور ومن انغلاق فانفتاح إلى انفتاح فانغلاق. وحسب ما هي فيه من حال نلقبها تتعامل مع غيرها من الشعوب تعاملًا مخصوصًا. وإنّي لمتصدّ لهذا

(*) كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفافس (جامعة الجنوب صفافس - تونس).

الموضوع من خلال مثال ملموس. يخصّ الفرنسيّين كيف نظروا إلى جيرانهم المسلمين في الجنوب أو في الشرق وكيف كانت نظرتهم إليهم تتغيّر من عصر إلى عصر. وإتيّ لمتصدّ له من خلال عمل أدبيّ يعكس ككلّ الأعمال الأدبيّة الرؤية العميقة للأمور في بعدها النفسي والحضاري والاجتماعي متمثلاً في أوّل عمل ملحّمي فرنسيّ ألا وهو نشيد رولان ⁽¹⁾ (La chanson de Roland). ثمّ أرصد التطوّر الذي حصل في تلكم الرؤية وذلك من خلال بعض الأعمال الأدبيّة وغير الأدبيّة في القرن الثامن عشر أي في عصر التنوير أو على الأخصّ من خلال بعض الأعمال الأدبيّة لرأس التنوير الفرنسي فولتير.

1 - نشيد رولان (La chanson de Roland)

هذا النشيد هو أوّل عمل ملحّمي فرنسيّ خالص وقد كتب باللغة الأنجلو نورماندية (Anglo-Normand) بعد سنة 1080 أو على الأرجح حوالي سنة 1100 حين بدأ التحضير للحملات الصليبيّة على الشرق. وهو لعمرى أثر شعبيّ كأغلب الملاحم يشبه إلى حدّ بعيد في روحه، الهلالية أو تغريبة بني هلال، ويعكس منطق التفريق الديني بين البشر. فكلّ ما عدا الذات هو كافر، والصراع هو على الدوام قائم بين الذات وبين الآخر ذلك الكافر الذي يستحقّ أن تلحق به اللعنة. وإتّما الروح الديني الشعبي هو الذي يحكم رؤية الشعوب للآخر في فترات التدهور والانحطاط. وتدور أحداث النشيد في عهد الملك شارلمان (742 - 840 م) أي في النصف الثاني من القرن الثامن بينما كان ظهوره في أواخر القرن الحادي عشر ممّا سيجعله يتلوّن بروح التعصّب الصليبي. وليس تأخر ظهوره غريباً. ففي الغالب يظهر هذا النوع من الأعمال في عصور لاحقة.

(1) لن أذكر رقم الصفحات في الشواهد بل سأذكر رقم المقطع الملحّمي وهو الرقم الأوّل ثمّ بعد المطّة رقم الأبيات المستشهد بها وهكذا يمكن للقارئ أن يعود إذا أراد ذلك إلى مختلف الطباعات.

فقصص سيدنا علي ورأس الغول ظهرت، ونمت كذلك في عصور لاحقة وتلونت بروحها.

* القاعدة التاريخية للنشيد : لقد استغل شارلمان خلافا جد بين عبد الرحمان الاول أو الداخل (731 - 788 م) مؤسس الدولة الأموية في الأندلس وبين أحد ولاته. فهبّ في ربيع عام 778م لمساعدة هذا الأخير. فتجاوز جبال البيرنيه بجيشين كان هو على رأس أحدهما. فاحتلّ بنبلونة (Pamplune). ولكنه انهزم على أبواب سرقسطة. ثم وقد بلغه خبر تمرد السكسون عاد أعقابه، غير أنّ مؤخرة جيشه تعرضت لهجوم من قبل بعض الجبلتين المسيحيين من الباسك والجاسكون وليس من قبل المسلمين كما في النشيد، وذلك في 15 أوت 778 فأبادوها. وكان من بين الذين قتلوا الدوق رولان. أمّا الحملة تلك فلم تدم سوى نحو من أربعة شهور أو خمسة على أقصى تقدير في حين أنّها دامت سبع سنوات في النصّ الملحمي. وليس لنا أن نستغرب هذا. فعادة ما تكون القاعدة التاريخية التي تنهض عليها هذه الآثار قاعدة ضعيفة بل واهية. وسيصبح ذلكم الرقم أكبر في ملحمة أخرى ظهرت في القرن الثالث عشر وهي «غي دي بورغونيه» (Guy de Bourgogne) وسيبلغ سبعا وعشرين سنة.

* صورة المسلمين في النشيد : كيف كانت ؟

1 - أولاً هم أتباع محمد فهم محمديون. أمّا لفظة مسلم فلم تذكر إطلاقاً. وهم «سرزان» (Sarrasins) وهي كلمة جاءت من العربية وبالتحديد من كلمة شرقي. فهم إذن شرقيون في مقابل غربيين تماماً يعكس جهلاً تاماً بالآخر. وهم كذلك دون تفريق عرب وترك وفرس وزنوج ومور وقرطاجنيون وبل أثيوبيون لافرق بين هؤلاء جميعاً من حيث العرق ولا اللون ولا الوطن. ولكن الأخطر من ذلك كلّهُ هو الجهل بعقيدة هؤلاء «الشرقيين» فهم «كفرة» بل «مشركون» . إنهم إذن لا يعرفون - أي عموم من ينتسبون إلى الرأي العام - أنّ المسلمين موحدون

مثل المسيحيين. ولا يعكس ذلك جهلا فحسب، بل يعكس الطابع الشعبي لهذه الملحمة. فهؤلاء الشرقيون كفرة يعبدون ثلاثة آلهة هم محمد نفسه وترفقان Tervagant وأبولين Apollin يقول النشيد :

إن المدينة هي بيدي الملك مرسيل عدو الله، إذ إنه يخدم محمد وأبولين (المقطع 7.8.1) (2).

ويقول :

وكان مهنالك عرش من العاج. ويأخذ مرسيل يعرض أمامه كتابا فيه تقرأ مذهب محمد ومذهب ترفقان (المقطع 47 - 609,610,611).

ويقول :

واقيم تمثال لمحمد على أعلى برج فأخذ الوثنيون يتضرعون إليه ويعبدونه (المقطع 68 - 852,853).

ثم إن صورة هذا السرزان، تبدو دائما قبيحة بل بشعة تثير نفورا وكراهية بل حقدا وازدراء. فهذه صورة أحد أبطال المسلمين، أبيسم، قد رسمت على هذا النحو :

يقول النشيد :

وفي الصف الأول كان ثمة شرقي يركب جواده هو أبيسم وهو أشد سائر فرقته خيانة. فهو ملوث بالردائل وكبرى الآثام ولا يعتقد في الرب ابن مريم القديسة. وهو إلى ذلك أشد سوادا من القطران الذائب. وهو يحب الخيانة والقتل أكثر من حبه لكل ذهب قاليسيا. ولا أحد رآه مرة يمرح ويضحك... (المقطع 173 - 1470, 1975)

وهذه هي صورة العدو الكافر الوثني، وحتى إذا كان شجاعا وكان محل مدح فللضرورة الملحمة. يقول النشيد عن أبيسم نفسه :

ولكنه كان هماما مفعما بالجسارة (المقطع 1473 - 1976).

وحين هزم المسلمون، صورهم النشيد في صورة وثنيين سذج قد غضبوا على آلهتهم فعمدوا إلى تكسيرها تماما مثلما تصور بعض الأفلام عندنا الجاهليين، علما أنه لم يوجد في التاريخ بأسره شعب أو أمة أو مجموعة بشرية تقول بأنها وثنية كما لا يعكس الشعر الجاهلي مثلا في شيء التصور السائد عن وثنية الجاهليين. إن هذا النوع من الصور يكون دائما من صنع الأعداء يقول النشيد :

وهرعوا إلى قبو معبد أتى يوجد الربّ أبولين فهزأوا منه علنا
وأوسعوه شتائم مقذعة : «أيها الربّ الخبيث لماذا ألحقت بنا مثل هذا العار؟
لماذا تركت مَلِكَنَا يُصْرَعُ ؟ فمن خدمك أحسن خدمة ، ثمّ قابلته بجزاء
منكر»..

واقتلعوا له فزاعته وتاجه وشنقوه من يديه في دعام، وطرحوه
أرضا تحت أقدامهم وضربوه وحطّموه بضربات من هراوات غليظة. أمّا
ترفكان فقد اقتلعوا له أيضا عقيقته الحمراء. وأمّا محمد فقد
القوا به في خندق أتى عضته الخنازير والكلاب وداست عليه (المقطع
187 - 2580 - 2591)

ولن أقف عند هذه الروح الملحميّة الشعبيّة، ولكن لا بدّ لي من
التأكيد على أنّ هذا النوع من الأدب شبيه ببعضه البعض لدى سائر
الشعوب في انغلاقها، علما بأنّ الطابع الغالب على الحضارات القديمة هو
الانغلاق عدا بعض الأمم التي عرفت انفتاحا حضاريا بسبب ما كانت تقوم
عليه من دعائم اقتصادية تتمثل في النشاطات التجارية العابرة التي
مكنتها من التعامل المنفتح مع الحضارات الأخرى.

2 - أسماء المسلمين :

من اللافت للنظر أنّ أسماء المسلمين ليس فيها اسم واحد إسلامي أو
عربي غير محمد Mohomet. ولقد نحت مؤلفيها النشيد سواء كان فردا

أو جماعة اسماءهم بطريقة يكون فيها غالبا الجرس غير عادي أو يكون موحيا بالشرّ والكراهية والنفرة. بل كانت اسماؤهم في بعض الأحيان غريبة المنسب مثل بريامون Priamon وهو اسم ليس بعربي بل إنه يعود إلى التاريخ اليوناني القديم (L'antiquité grecque). وهذه أمثلة على ما ذكرت من أمر صياغة تلك الاسماء :

- الطريقة الشعبية في الصياغة : لفظ Corsalis يتصل بلفظة Corps أي الجسم ويوحي بكبر الجثة أو الجسامة. استعمال السابقة Mal (مال) وتعني الشرّ وما إليه مثل الخبث وغيره Malpramis (مالبراميس) Malquiant (مالكيان).

ومن أطرف الاسماء في هذا المعنى Malbien المؤلف من Mal (مال) كما ذكرنا ومن Bien (بيان) بمعنى الخير أي إن الاسم هو (شرخير)

معنى النفاق والخداع مثل Falsaron

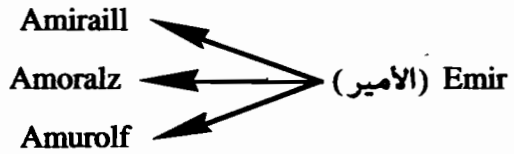
معنى آخر كالسمرة Valdabrun (فالدبران) وبران Brun معناها أسمر.

ويندر أن نجد عنصرا عربيا يتسرّب إلى هذه الاسماء مثلما نجد في اسم الأمير Baligant (باليقان)



أو في L'algalife أي الخليفة ولكن من دعي بخليفة لم يكن خليفة بل كان عمّ الأمير مرسيل (Marsile) أمير سرقسطة.

أو في الألفاظ التي أدّى بها النشيد لفظ الأمير :



فهي جميعا توحى بالأمير مع نهايات غامضة لغويًا. بل وثمة من الأسماء ما يعود إلى التاريخ اليهودي وإلى العهد القديم بالذات مثل Aeloroth. ونادرا ما يكون الجرس يوحي بكلمة عربية مثل ألفعان Alphaan ولكن زيادة على ذلك تبقى ملامح المسلم غير واضحة. بل هي ملامح أروبية أكثر منها ملامح شرقية. فـشعر Blancandrin - وهو مسلم - أبيض دون أن يعني النشيد بذلك شيب السن. أما Jarofleu جورافلو وهو ابن الأمير المسلم مرسيل فهو أشقر.

وأما القاب المسلمين فعدا (الأمير) و(ال خليفة) فإتّما هي القاب غربية على الثقافة العربية الإسلامية فهم دوقات وكونتات (Ducs et Contes).

وأما الأماكن الجغرافية فاخلط فيها هو القاعدة. فمرسيل استنجد باليقان أمير بابل. يقول النشيد :

«وجد مرسيل ندائه إلى باليقان أمير بابل الذي ما لبث أن وصل على رأس أسطول قوي».

ولكن النشيد يذكر في أحيان أخرى أنّ هذا الأسطول جاء من الإسكندرية. ولقد وصل الخلط حدّ ذكر أسماء لم يتبيّن لها الدارمون حقيقة مثل الفريري وكذلك لم يتبيّن لها المترجمون رسما. يقول النشيد في هذا المقطع شديد الخلط :

ثم ماذا يا ترى ؟ فمرسيل لاذ بالفرار. أما عمّه مارقانيس فبقي وهو صاحب قرطاج والفريري وقرماليا وأثيوبيا، الأرض اللعينة. إنّه يملك على جنس السود ذوي الأنوف الكبيرة والأذان العريضة.

إنّ الصورة لقائمة والكره لمستحكم. وليس ثمة ما يثير الإعجاب لدى الطرف الآخر أو ليس ثمة ما هو مغر غير صورة «إسبانيا المشرقة الرائعة» (4. 58) (La brillante, la belle Espagne) بشرائها الفاحش الذي تناقله الركبان، والبادي في كلّ شيء، في القصور وفي المساجد، في الأسلحة وفي نفانس القنّى. يقول بييرجونان : «إنّ الأوصاف التي وصفت بها المساجد والقصور (في نشيد رولان) تلك التي تناقلها الكثير ممّن شاهدوها تبقى على كلّ حال قريبة من واقع الأمور»⁽²⁾.

ولكن رغما عن هذه الصورة المشرقة فالموقف يبقى مغلقا، بل إنّ هذه الصورة نفسها تؤكد أيا تأكيد، غير أنّ ما عكسه النشيد من موقف مغلق لا ينبغي أن يخفي علينا أنّ علماء الغرب كانوا على اطلاع على ما حصل من تقدّم في الشرق وفي الإمبراطورية العربية الإسلامية وخاصّة في مجال العلوم يقول فولتير نفسه : «وأخيرا كان لابدّ للمسيحيّين منذ القرن الثاني المحمدي أن يتعلموا على المسلمين»⁽³⁾ ويقول أيضا : «ومنذ القرن الثاني للهجرة أصبح العرب أساتذة أروبا في العلوم وفي الفنون بالرغم من أنّ عقيدتهم تبدو مناوئة للفنون»⁽⁴⁾.

2 - تطوّر الرؤية ،

لقد كانت الإمبراطورية العربية الإسلامية أحد المنابع الكبرى للثقافة الغربية باعتراف العلماء الغربيّين وباحثيهم. ولقد كان هذا التأثير واقعا من طرق ثلاث :

(1) اللاتينية الوسيطة، لاتينية الأطباء والصيدلة والكيميائيين والرياضيين وعلماء الفلك وغيرهم.

(2) إيطاليا والتجارة في جنوة والبندقية

(2) Pierre Jonin, *Mosaic*, VIII.41, 1976.

(3) Voltaire, *Essais sur les mœurs*, GF, p.268

(4) Voltaire, *Essais sur les mœurs*, p.261.

(3) إسبانيا حيث استقرّ «المور» (Maures) أي المغاربة من القرن الثامن الميلادي إلى القرن الخامس عشر وأسسوا حضارة متميزة.

وفي فرنسا بدأ الاهتمام بالشرق عموما في القرون الوسطى فلقد أسّس البابا إنوسنت الثالث (Innocent III) كرسي اللغة العربية في جامعة باريس وذلك في بداية القرن الثالث عشر ميلادي. ثمّ بعد أربعة قرون أخذ لويس الرابع عشر (1638 - 1715م) يشجع على تعاطي الدراسات الشرقية. فأسّس كرسي اللغة السريانية والدراسات الشرقية في كوليج فرنسا Collège de France .

ولقد قوّت من هذا الانجذاب نحو الشرق ثلاثة عوامل :

(1) ظاهرة التبشير والمبشرين وخاصة منهم المدعويين بـ (Les capucins du père Joseph) وهم الكبوشيون من أتباع الأب يوسف.

(2) متطلبات التجارة الدولية

(3) نزعة البحث عن الأصول في الشرق وذلك بداية من النهضة.

ولكن رغما عن ذلك فاتّصال الفرنسيين بالشرق لم يصبح مباشرا إلّا في غضون القرن السابع عشر. وذلك عن طريق الرحالة الفرنسيين الذين وقروا شهادات ثمينة للكتاب والفلاسفة والمؤرخين. وأذكر منهم : جان - بابتيست طافاريني Jean-Baptiste Tavernier (1605 - 1689) وكتابه «الرحلات الستة» الذي صدر بباريس سنة 1681. وجان شاردان Jean Chardin (1643 - 1713) وقد نشر سنة 1711 «الرحلة إلى فارس والهند الشرقية» Voyage en Perse et aux Indes orientales . وقد ظهر سنة 1747 كتاب ينقل عددا كبيرا من الروايات والحكايات الخاصة بالشرق عنوانه «التاريخ العام للرحلات» (L'Histoire générale des voyages) ونُشر كتاب آخر يتحدث عن

الحضارة الإسلامية تحت عنوان «العادات والتقاليد لدى المسلمين» (Moeurs et usages des Turcs) وذلك سنة 1746. ثم كان قد ظهر كتاب «المكتبة الشرقية» لصاحبه دربولو سنة 1697 (D'Herbelot, Bibliotheque orientale) وهو الكتاب الذي سيستعيـره فولتير من الرـكـيز دارجنسون (D'Argenson) ليكتب كتابه «Essai sur les moeurs et sur l'esprit des nations» وذلك سنة 1756.

وبالرغم من قصور تلك الكتب عن إدراك كنه الحضارة الشرقية وفهم بعض ظواهرها بتجرّد، فقد وفرت لأوّل مرّة كمّا هائلا من المعلومات الصحيحة والدقيقة التي ستفيد الكتاب والفلاسفة أيّما فائدة بالرغم من تحفظهم عليها. يقول منتسكيو في الرسالة الثانية والسبعين من الرسائل الفارسية على لسان «ريكا» الذي تحدّث إلى «إبان» عن دعويّ اعترضه في باريس كيف كان يؤسس كلامه على أقوال الرحالتين اللذين ذكرناهما فيما سلف. يقول ما يلي : «وحدّثته عن بلاد فارس ولكن ما إن قلت له أربع كلمات حتّى قدم إليّ تكذيبين أسسهما على نفوذ السيد طافارنيي (Tavernier) والسيد شاردان (Chardin) فقلت في نفسي : (آه يا إلهي أيّ رجل هذا ؟ سيكون عارفا في الحال بشوارع إصفهان أكثر منّي) فما لبثت أن اتّخذت لي موقفا فلذت بالصمت وتركته يتحدّث ممعنا في تقريراته»⁽⁵⁾.

ولعلّ ما هو أهمّ من ذلك هو ترجمة القرآن ألف ليلة وليلة، فهذان حدثان سيكون لهما تأثير عميق أيّما عمق.

(1) - القرآن : لقد ترجم القرآن إلى اللاتينية منذ القرن الحادي عشر ولكن تلك الترجمة كان القصد منها تشويه نصّه. فكانت أبعد ما تكون عن الأمانة العلميّة⁽⁶⁾. ثمّ لقد ترجم إلى الفرنسيّة من قبل أندري دو رير Andre de Ryer، وعرفت هذه الترجمة عددا كبيرا من الطباعات

(5). Montesquieu, *Letters persannes*, Lettre 72.

(6) Encyclopedie de L'Islam, Coran

بين سنة 1647 وسنة 1775 وكانت مصحوبة بموجز يعرف بدين المسلمين (Turcs). ثم ظهرت ترجمة لاتينية ثانية قام بها لويس مراكبي (Louis Marraci) وذلك سنة 1698. ثم أعيد نشرها سنة 1721 مع زيادات وتنقيحات وتعليقات قام بها رينوكيوس (Reiniccius). ثم جاءت ترجمة ثانية إلى الفرنسية قام بها سافيري (Savery) عن العربية مباشرة سنة 1751، ولكنها لم تكن هي الترجمة التي قرأها طبعا منتسكيو أو بالخصوص فولتير. فهذا الأخير قرأ ترجمة إنجليزية قام بها جورج صال (George Sale) وطبعت لأول مرة سنة 1934 في لندن وكان عنوانها كالآتي : The Koran translated in to English and with a preliminary discourse (القرآن مترجماً إلى الإنجليزية مع توطئة) (7).

(2) ألف ليلة وليلة : ولعل ما سيترك أثراً أكبر من غيره هو هذا الكتاب الذي سيسحر العقل الفرنسي، ولقد بدأ قالان (Galland) في نشر ترجمة له سنة 1704. ومنذ ذلك التاريخ سيبدأ عهد جديد يتميز بالولع الشديد بالشرق عموماً وسيبدأ الكتاب في استلهامه في أدبهم المكتوب من مسرح وقصة وشعر. فكتب لوساج (Lesage 1668 - 1747) ألف نهار ونهار Mille et un jour ou les Indes galantes معارضا بذلك الأثر العربي ذائع الصيت. وقد كتب دوفريسسي (Dufressy 1648 - 1724) قبل مونتسكيو كتاباً استعمل فيه شخصاً أجنبياً لينقد الوضع السائد في فرنسا آنذاك وذلك سنة 1705 وقد كان عنوانه Les amusements sérieux et comiques d'un siamois ثم سيأتي الأثر الرائع غاية الروعة. والمتمثل في الرسائل الفارسية لصاحبها مونتسكيو أستاذ فلاسفة القرن الثامن عشر وذلك سنة 1721 وسيصطنع فيها شخوصاً من الفرس عن طريقهم ينقد الواقع الفرنسي دون أن يضرب حضارتين الواحدة بالأخرى. ولعل أروع ما تقرأ عن الشرق هذا الحكم المتعلق بواقع الدولة العثمانية المنذر بالأفول رغم أن تلك الدولة قد بلغت في القرن الثامن عشر أوجها. يبين مونتسكيو في الرسالة التاسعة عشرة على لسان

(7) Voltaire, *Essais sur les mœurs*.

«أزبك، كيف وقف على ضعف الاقتصاد من فلاحه وتجارة وعلى تدهور الفنون بما في ذلك الفنون العسكرية. يقول : «وفي حين أن الأمم الأوروبية ما تزال تهذب كل يوم نلفيهم ما يزالون على جهلهم القديم»⁽⁸⁾. ثم إن هذه الدولة لتنهض على الظلم. فالباشوات الذين يحصلون على وظائفهم بمقابل مالي يعودون مفلسين إلى مقاطعاتهم لينهبوها كأنها بلدان غزو»⁽⁸⁾ ويقول : «إن هذا الجسم المريض لا يتماسك بنظام سمح معتدل وإنما بأدوية عنيفة تنهكه وما تزال تتأكله»⁽⁸⁾. ويختم بهذا التنبؤ الذي سيثبتته التاريخ لاحقا : «هذه - يا عزيزي روستان - فكرة صحيحة عن هذه الإمبراطورية التي ستكون قبل قرنين مسرحا لانتصارات أحد الغزاة»⁽⁸⁾. وذلك ما تم فعلا. وإنما هذا شأن الأمم التي لا تعمل من أجل الرقي والتطور. فشأنها شأن المريض المتهالك والمتدهور المتدارك. وإن نظاما ينهك شعبه بالضرائب لأيل إلى الزوال ونظاما يتعامل مع أجزاء منه بالحصار لم تأكل في وقت قريب.

(3) فولتير ونضج الرؤية : أما فولتير وإن لم يزر الإمبراطورية العثمانية مثلما زار بريطانيا فهو حين استسلم للموضة المتمثلة في استلهم الشرق مثل سائر معاصريه، وجد الطريق له ممهدا كما سلف أن بينا. ثم إن فولتير الذي كان يكره القصص قد وجد ضالته في ذلك القصص المستلهم للشرق. فعمد إلى صب أفكاره الفلسفية في هذا الشكل الذي هو في ذات الوقت روح ساحر. ولقد كانت الرواية الفلسفية إحدى سمات القرن الثامن عشر. لكن قل من نجح فيها مثلما كان النجاح حليف فولتير نفسه. ثم لقد كانت نظرة فولتير للشرق نظرة تنويرية بحق خالية من التعصب قائمة على نقد يعضده الإعجاب. ولقد كان الشرق يتسم عنده في الوقت ذاته بالثباتات (immobilisme) وبروح التقدم (Le progrès). فهو ثابت باستبداد نظامه السياسي الشرقي. ولكنه تقدمي بما له من قيم رائعة تمثل في التسامح والضيافة والصدقة.

(8) Montesquieu, lettres persannes, lettre 19.

ففي كتابه «تاريخ شارل الثاني عشر، روى مغامرات ملك السويد حين هزمه قيصر روسيا فلجأ إلى الباب العالي. فقال : «ولقد سهر المسلمون (Les Turcs) على ألا ينقصه شيء في طريقه بما يجعل رحلته رائقة ... فهذا هو العرف الجاري لدى المسلمين. وهو لا يتمثل فحسب في إيفاد السفراء إلى مكان إقامة الأمراء اللاجئين إليهم وإنما كذلك في توفير كل شيء لهم مدة مكثهم عندهم»⁽⁹⁾.

وهو أيضا سيمتدح تسامح العثمانيين حين يقبلون بوجود كنائس على أرضهم في حين لا يقبل المسيحيون وجود مساجد عندهم. يقول متحدثا عن المسلمين في إسبانيا وهم الغالبون : «لم يغال الغالبون فيما تحقق لهم بالسلاح، فقد تركوا للمغلبيين أملاكهم وقوانينهم وديانتهم مكتفين بالجزية وبشرف القيادة»⁽¹⁰⁾.

أما مفهوم الصداقة فيحيلنا على العرب. ويكفي أن تقرأ في المعجم الفلسفي فصل الصداقة لتدرك مدى احترامه لهذه الأمة. فبعد أن بين أن الصداقة عقد ضمني بين شخصين حساسين وفاضلين، أضاف قائلا : «لقد كان التعلق بالصداقة أقوى عند الإغريق والعرب منه عندنا. فالقصص الذي تخيلته هاتان الأمتان عن الصداقة لرائع. وليس عندنا ما هو شبيه به فنحن نوعا ما جاقون في كل ما أمر»⁽¹¹⁾.

أما في قصته الشرقية «زاديق أو القدر، والذي هم طه حسين أن يجعله صادقا فقد كان إعجابه بالأبطال العرب لا حدود له. فإعجابه بـ «ستوك، وبـ «المنى، وحتى بـ «أربوقاد، قاطع الطريق بين واضح. فاسمع هذا المقطع الذي جاء بعد أن أنقذت المنى Almona «زديق، من الإعدام، تقول القصة : «وانقذ زاديق وفتنت ستوك فطنة المنى فتنة جعلته يتخذها له زوجة. ورحل زاديق بعد أن ارتمى تحت أقدام محرّته الحسناء. ثم افترق

(9) Voltaire, *L'Histoire de Charles XII*, chapitre 4 et 5.

(10) Voltaire, *Essais sur les mœurs*, p.327.

(11) Voltaire, *le Dictionnaire philosophique*, article : amitié.

ستوك وزاديق وهما يقسمان على أن يظلّا مرتبطين بعري صداقة دائمة، ويتواعدان بأن يشرك من يحصل منهما الأوّل على ثروة كبيرة أن يشرك الثاني فيها، (12).

وحين أصبح زاديق ملكا على بابل دعا فعلا صديقه ستوك ليأتيه من أقصى بلاد العرب مع الحسناء المنى Almona وذلك ليجعله على رأس تجارة بابل.

فالعرب هم أمة تجارة مثل الأنجليز في عصر فولتير. والتجارة تسمح بأكثر من جولان البضائع أي بجولان الأفكار. يقول في الفصل الثاني عشر من زاديق : «واخذ ستوك ذاك الرجل الذي تسكنه الحكمة والذي لم يكن بوسعه أن يفصل عنه، أخذه إلى معرض البصرة العظيم حيث يلتقي أكبر تجار المسكونة. وكان في معاشرة زديق لأولئك الذين جاؤوا من مختلف الأمصار واجتمعوا في مكان واحد عزاء بين، وكان قد بدا له أنّ الكون أسرة كبيرة تجتمع في البصرة..» (13) فهل كان العالم قرية واحدة مثلما نقول اليوم ؟ وهل كان مبدأ العولمة البصرة وليس الولايات المتحدة كما نعتقد كذلك ؟

ثم إنّ فولتير الرباني لأميل إلى تصنيف الشعوب حسب أعراقهم وليس حسب أديانهم لكنّه أيضا كان يدرك أنّ الدين الإسلامي قد ظهر بين العرب وهم الذين نشره وخرجوا به من جزيرتهم إلى مختلف أنحاء المعمورة، ذلك أنّ العرب وقد حمتهم صحاراهم وحمتهم شجاعتهم لم يخضعوا أبدا للنير الأجنبي... فهذا الشعب العظيم ما يزال على الدوام حراً بمثل ما هم أحرار شعب السكيت غير أنّه أكثر تمدّنا منهم.. ولم لا يولع فولتير بالعرب ؟ أليس هم «الشعب الأكثر حلما من بين سائر الفاتحين في سائر الأرض، ؟» (14) ثمّ أليس هو المفكر الذي كان العدو للدود

(12) Voltaire, *Zadig*, chapitre XIII.

(13) Voltaire, *Zadig*, chapitre XII.

(14) Voltaire, *Essais sur les mœurs*, p.397.

للتعصب وكان داعية للتسامح خصوصا في كتابه «م——ؤلف التسامح، (Traité sur la tolérance) وهو بموقفه هذا سيمهد لفصل «العربية، الذي كتبه ديدرو في الموسوعة. يقول فولتير مبينا عن موضوعية كبيرة وسعة أفق : «لقد فازت اللغة (العربية) بأن بلغت كمالها منذ أمد طويل. ولقد استقرّ (نظامها) قبل محمد، ومنذ ذلك الوقت لم يداخلها عليها فساد قط، (15).

وحين كان فولتير وهو عدو التعصب ونصير التسامح يتحدث عن الإسلام لم يكن مشغولا بالحكم على صحة هذه الديانة أو فسادها. فذلك ليس شأنه. إذ كان يبحث عما يمكن أن يمكنه من فهم قوانين التطور في إطار رؤية تاريخية للتحوّلات والانقلابات التاريخية في الدنيا. يقول : «ولست بمقارن دون شك الدين المحمدي بالنصرانية، فأنا أقارن بين التقلبات، (16). ولقد كان صادرا في ذلك كلّهُ عن روح القرن الثامن عشر وروح التنوير وعن رؤية ثاقبة للظواهر. يقول : «فهذه عادات وأعراف ووقائع مختلفة غاية الاختلاف مع كلّ ما يجري عندنا من شأنها أن تبيّن لنا كم صورة الكون متنوعة وكم علينا أن نحاط بما دأبنا عليه من الحكم على الأمور بحسب ما لنا من أعراف، (17). وإنّ ذلك كلّهُ ليدلّل على تحوّل في الرؤية للمسلمين والعرب في القرن الثامن عشر حمل لواءها فولتير رأس التنوير الفرنسي الذي نبذ التعصب والروح الديني المذلّ للشخصية الإنسانية ونبذ روح الاستبداد المدمر لها. يقول متحدثا عن هذا التغيير الجوهري في الرؤية : «لم يمرّ قرنان منذ أن كنّا نسمّي هذه الأمم أمم بلاد الشرك بينما العرب والمسلمون والأتراك لا يعرفوننا إلّا تحت اسم المشركين، (18).

(15) Voltaire, *Essais sur les mœurs*, p.268

(16) Ibid, p.553

(17) Ibid, p.259-260.

(18) Ibid, p.245

أمّا القرن التاسع عشر وإن شهد ولعا بالشرق ففي الواقع كان ولعه ذلك ولعا بالغريب الذي يأتي من مناخات أخرى. فلقد كَفَّ الشرق عن أن يكون مصدر استلهام. ولقد كان ذلك شأن فيكتور هوقو Victor Hugo نفسه في «الشرقيات» (Les Orientales) التي قال عنها : «لقد جاءت من تلقاء نفسها لتطبع سائر أفكاره وسائر خيالاته». ثمّ لقد كان شأن جيرار دي نرفال Gerard de Nerval في «الرحلة إلى الشرق» (Le Voyage en Orient) وفلوبير Flaubert في صلامبو (Salambo) كما كان شأن غيرهم. وهكذا لم يعد الشرق مصدر استلهام بقدر ما أصبح مصدر كل شيء غريب مستظرف أي مصدر اكزوتيسم (Exotisme).

وهكذا يمكننا أن نخلص إلى أنّ التغير الجوهري في الرؤية إلى الآخر لم يحصل إلّا مع مطلع النهضة الأوروبية وبالخصوص في القرن الثامن عشر. وذلك ما كان ناتجا عن التطوّر الجوهري الحاصل في تطوّر وسائل الإنتاج وما ترتّب عنها من إنتاج واسع للبضائع وما ستتطلبه هذه من ازدهار في التجارة العالمية التي ستكون المبدأ في تعرّف الشعوب على بعضها البعض وفي خروجها من انغلاق العصور القديمة سائرهما كما عبّر عن ذلك نشيد رولان إلى انفتاح العصور الحديثة كما رأينا عند فولتير باعتباره رأس التنوير الفرنسي.